

الجدور التاريخية للحركة الإصلاحية في موريتانيا

مقاربة أولية



الدكتور. عبد الله أحمد حمدي
رئيس مركز الضياء الكندي للدراسات العربية

تهدف هذه الورقة إلى دراسة الحركة الإصلاحية في موريتانيا نشأة وتطورا موضحة مقصودها من العنوان (الجدور التاريخية للحركة الإصلاحية في موريتانيا) إذ نقصد بالجدور التاريخية الإرهاصات الأولى والمنطلقات الأساسية التي قام عليها التغيير منتهين إلى إبراز جهود رواد الإصلاح في القرن الثالث عشر الهجري، منبهين إلى أننا لا نريد التتبع التاريخي للأحداث ولا نعتد التاريخ إلا بوصفه معينا على فهم فكرة أو بلورة أخرى.

أما «الحركة الإصلاحية» فنعني بها الجهد التغييري الفاعل الذي يرمي إلى إعادة صياغة المجتمع وفق رؤية فكرية متميزة تنطلق من أطر مرجعية تعيد الاعتبار للفترة الذهبية في الدولة الإسلامية، وتأتي شبه الجملة «في موريتانيا» لتحدد الإطار المكاني للبحث فموريتانيا تصدق على المنطقة الممتدة بين جمهورية مالي شرقا والمحيط الأطلسي غربا ونهر السينغال جنوبا والمغرب والجزائر شمالا.

I - : نشأة الحركة وتطورها:

أ- حركة المرابطين :

تعتبر حركة المرابطين أول حركة إصلاحية تعرفها البلاد¹ حيث قام عبد الله بن ياسين ومن سار على هداة بالدعوة المرابطية. ولما تجاوز عدد الوافدين على الرباط الألف دعاهم إلى الجهاد بعد أن كان قد أتم تربيتهم على التعاليم الإسلامية وخطبهم قائلا: "إن ألفا لن تغلب عن قلة وقد أصبح من واجبا أن نعمل على إعلاء كلمة الحق وأن نجبر الناس على طاعة خالقهم إذا اقتضى الأمر ذلك"²

وكانت أول خطوة عملية قام بها توزيع أنصاره بين القبائل الصنهاجية يدعونهم إلى التعاليم الإسلامية ويخوفونهم عواقب الإعراض عنها في الدنيا والآخرة.

وقد استطاعت هذه الحركة أن تكون دولة إسلامية تضم الأراضي الموريتانية الحالية والمغرب الأقصى وجزءا كبيرا من إسبانيا. كما استطاعت أيضا أن تطيح بمملكة غانا الوثنية

¹ ظهرت دولة المرابطين حوالي سنة 435هـ/1023م ومن أشهر علمائها يحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر، وابن عمه يوسف بن تاشفين، والفييه عبد الله بن ياسين الذي كان صاحب اقتراح نقل السلطة من بلاد شنقيط إلى المغرب الأقصى.

² تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ج 11، ص 375

سنة 472هـ/1080م.

وبعد استشهاد الشخصيتين القياديتين³ في الدولة عرفت زعامة المرابطين ضعفا وفتورا وشبه انحلال، مما أدى إلى انفصال كثير من الأقاليم التي كانت تابعة لها وهياً الجو لدخول قبائل بني حسان.

وقد خلفت حركة المرابطين بصمات واضحة تمثلت في تعميق هذا الدين وترسيخه وتوسيع دائرة المنتمين إليه حسب المذهب المالكي السني، كما خلفت تنظيمات اجتماعية قائما على التمايز على مستوى الوظائف: تقول الروايات إن أبا بكر "بعد أن دانت له البلاد بكاملها إثر استيلائه على الإمبراطورية الغانية جمع محلته وقسمها إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة تتكون من عدة قبائل ففي الطليعة يأتي المحاربون ويعتبرون أنفسهم سادة البلاد الحقيقيين وهم المكلفون بالدود عن البلاد وحماية الطبقات الأخرى، تليهم طبقة رجال الدين التي تهتم عادة بالأمور الدينية كالعبادة والتعليم بالإضافة إلى ممارساتها لبعض الأنشطة الأخرى، وفي الدرجة الثالثة تأتي طبقة الأتباع التي تضم الرعاة والحرفيين ولا هم لهؤلاء سوى توفير العيش لأفراد الطائفتين السابقتين".

ومن الواضح أن هذا التقسيم هو الذي ظلت سماته حاضرة في المجتمع الموريتاني حتى اليوم والذي تعمق بعد دخول القبائل الحسانية إلى المنطقة، هذه القبائل التي تمكنت من بسط نفوذها العسكري والسياسي على سكان البلاد الأصليين وهم على ما يبدو مجموعات قبلية - بربرية اللسان- مسلمة إسلاما سنيا موروثا عن حركة المرابطين، وبترسخ السيطرة الحسانية أرغمت القبائل المهزومة على اطراح السلاح والتفرغ للمشاكل العلمية والتجارية. وإن كان هذا الإتجاه إلى تقسيم العمل سابقا على ورود الهجرة العربية إلا أنها ركزته وجعلته أبرز السمات في تنظيم المجتمع وحجر الزاوية في مختلف الصياغات الإيديولوجية لتاريخه⁴.

وبعد سقوط دولة المرابطين عاشت البلاد اضطرابا سياسيا وتفككا اجتماعيا حيث انعدم الأمن والاستقرار وانتشر الفساد وعم الظلم، فكانت أول محاولة إصلاحية بعدهم -حسب علمنا- تحاول بطريقة عملية تطبيق الإسلام على الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي المحاولة التي ظهرت في كونفيدرالية "تشمشه"⁵.

³ بعد استشهاد أبي بكر بن عمر سنة 480هـ/1087م ويوسف بن تاشفين سنة 500هـ/1107م أخذت دولة المرابطين في التدهور حيث تفككت وحدة القبائل الصحراوية واستعادت مملكة غانا استقلالها وخضع الجزء الجنوبي والجنوبي الشرقي من الأراضي الموريتانية لامبراطورية مالي وأطاح الموحدون بالجزء المتبقي منها في الشمال.

⁴ د. أحمد ولد الحسن: مجلة المستقبل العربي عدد 72، فبراير 1985م، ص113، 112.

⁵ شمش: بمعنى خمسة، وتطلق اصطلاحا على خمس مجموعات منحدره من خمسة رجال انطلقوا من تارودانت بالسوس الأقصى واستقروا بمدينة آبير فترة من الزمن قبل أن يفروا من الفتن التي شبت بها إلى قبيلة المدلس حيث أقاموا معهم وتزوجوا منهم وتكاثروا وكونوا حلفا في نهاية (ق:7هـ/13م) وتعهدوا بالتجديد سنويا على كتيب «أكننت» الغربي وفق مبادئ أخلاقية خمسة: شرحها البدالي في شيم الزوايا، والرجال الخمسة الذين انحدرت منهم قبيلة تشمشة هم: ديبال يعقب جد الأفغيين، مهنض أمغر جد بني ديمان، يدمس، جد إكبهني، يداج أكد يرغه جد إدودي، ابهنضام جد اليعقوبيين. يقول محمد البدالي في كتابه شيم الزوايا مبينا سبب تسميتهم بهذا الاسم: "وسبب تسميتهم تشمشة بأنهم خمسة رجال خلف كل واحد منهم خمسة أولاد وتعاقبوا على خمسة أشياء، ومعنى تشمشة بالعجمية الخمسة".

راجع تحقيق الكتاب للطالب محمد بن محفوظ مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة سنة 82-83. وذكر أحمد ولد احبيب في كتاب الأعداد (ج2، ص19) ما نصه "وقد أخبرني مخبر أن المسائل التي تعاقبوا عليها هي الصبر بأنواعه (أي على الطاعة، وعن المعصية، وفي الشدة) ثانيا عدم مخالطة الظلمة. ثالثا أن يكونوا يدا واحدة على الظالم. رابعا أن لا يتحاكموا في مال. خامسا أن من ادعى عليهم شيئا تركوه له.

وفي كتاب «ذات الواح ودرس» لسيد أحمد بن أسمة: "إن مبني أمور الزوايا على أربعة أمور نظمها العالم الأمين بن المختار فقال:

أركان سيرة الزوايا أربع
فاستمعوا أوعدها لكم وعوا

حيث يعتبر الإمام ناصر الدين⁶ الزعيم المؤسس لهذه الحركة.

ب- حركة الإمام ناصر الدين في القرن 11هـ:

*** المنطلقات والأهداف:**

لقد ظهرت حركة إصلاحية قوية بزعامة الإمام ناصر الدين في النصف الأول من القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) تهدف إلى قلب الأوضاع القائمة واستبدالها بأوضاع جديدة، ومحاولة النهوض بفئة الزوايا التي عانت أكثر من غيرها ضروبا من الظلم وعرفت ألوانا من التسلط والقهر والمضايقة من القبائل العربية والممالك الزنجية.

فكتاب «شيم الزوايا» لمحمد اليدالي حافل بصور من هذه المظالم يقول: "وكانوا يصبرون كثيرا من جور قبائل قبل أولاد رزك، منهم الخبايشة والعزيزات والبرابشة، ثم جاء أولاد رزك فاشتد جورهم عليهم، ووقع كثير من الجور على تشمشة من كدول بن موسى⁷ من أولاد بوعلي، حتى أنه إذا أتت راويته إلى بئرهم لا يبرك جملها حتى تسقى قربه والجمل واقف، وإذا أصبح عليه البقر باركا، لا يثيره أحد من مباركه -ولو أهله- حتى ينهض البقر وحده بلا إثارة أحد".⁸

أما علاقتهم بالممالك الزنجية المجاورة فكانت تتراوح بين فترات سلم واستقرار وفترات توتر واضطراب، ونجد ذلك التوتر في مناسبات عديدة، تشكل في صراعات مفتوحة وحروب دامية، فقد ذكر رني باسي (René Basset) أنه في واحدة من هذه الحروب قتل ثمانون من أمجاد التونكليين أولاد ديمان⁹.

لقد أحس ناصر الدين بالوضعية السيئة التي آل إليها هذا المجتمع من ظلم واستبداد فرفع أهدافا طموحة ساعدت في الإستجابة السريعة لدعوته، ومن أشهر هذه الأهداف:

- إنشاء دولة إسلامية تجمع شتات معظم قبائل الزوايا.
- مناهضة التجارة مع الأوروبيين وخاصة تجارة الرقيق التي كانت سائدة في الممالك الزنجية.

- الدعوة إلى العدالة الاجتماعية والتنديد باضطهاد وظلم الملوك لرعاياهم.

وقد استطاع ناصر الدين بفعل حيويته وإيمانه بقضيته أن يوحد بين معظم قبائل الزوايا ويقنعهم بضرورة التغيير، رغبة منه في تحويلهم من مستوى المفعول به في الساحة إلى دور الفاعل الرائد كما نجح في استقطاب عناصر من أولاد رزك وبعض قبائل الممالك الزنجية

وصبر ما تكرهه القلوب
أضف لما ذكرته التعلما

من ذاك ما من القرى ينوب
والعون عند حفر أهلك لما

وقد أضاف سيد أحمد بن أسمة ركنا خامسا إلى الأركان السابقة:

فيه تقيم الخمس من ذاك اعددا

ثم بناء كل حي مسجدا

راجع أزمة القيم في شعر أبي بكر بن محمذن "بكن" مذكرة تخرج بالمدرسة العليا سنة 83-84 ص35.

⁶ راجع التعريف به في مذكرة «نظرة تاريخية على شربيه» للطالب محمد المختار ولد السعد، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة سنة 81-82 ص39.

⁷ هو كدول بن موسى بن عمران بن اعلي بن رزك، كان رئيس أولاد بوعلي اشتهر باستبداده ونزعته التسلطية، كان يمنع الناس أن يدخلوا "شمامه" حتى تنحسر عنها المياه وتصلب أرضها وذلك لتبقى صالحة لترويض الخيل وتدريبها على الكر والفر، وقد بلغ كدول درجة من القسوة على الناس واغتصاب أموالهم جعلته مضرب الأمثال.

وقد اختلف المؤرخون في الفترة التي عاش فيها كدول، فبعضهم اعتبرها نهاية القرن السابع وبداية الثامن عشر (الموافق لنهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر) ويرى المختار بن حامد أنه ربما كان بعد ذلك.

⁸ محمد اليدالي: شيم الزوايا ص: 27 مخطوط بدار الثقافة - انواكشوط

⁹ راجع René Basset: Recherche Historique sur la Mauritanie P450

وعباً الجميع حول برنامج جهادي يرمي إلى إشاعة العدالة وتصحيح معتقدات المجتمع، منمياً في أتباعه روح التفاني ومحبة الاستشهاد.

وبعد تكوينه للجبهة الداخلية وتربيته لأصحابه على التضحية والجهاد قرر أن يوسع دائرة دعوته فأرسل رسائل ومبعوثين إلى أمراء الممالك الزنحية المجاورة يدعوهم إلى ضرورة إقامة العدالة بين رعاياهم ومعاملتهم بلطف. يقول لويس مورو دوشامبونو¹⁰ : -معرباً عن شعوره بالقلق من الانتشار المتزايد لهذه الحركة-: "وهذا المرباط أو الراهب المنتمي إلى شعوبة محمد من أمة البيضان التي تسكن في بلاد البربر، وهو رجل شديد الطموح لم يكتف بكونه قد بدأ في بلاده بتغيير العادات والدين عن طريق إشاعة هذا التوبناني¹¹ فيها وإنما يريد أن يذهب أبعد من ذلك وعلماً منه بأن الزنوج كانوا محكومين من طرف ملوك لم يعودوا يتحملون نيرهم إلا بالقوة لشدة ما عانوه من الطغيان والنهب والاسترقاق فقد قرر التوجه إلى بلادهم ليفعل فيها ما فعله في بلاده"¹².

هكذا استغل ناصر الدين الظروف السيئة التي يعيشها مجتمع الزنوج تحت ظل أمرائهم الاستبداديين فبعث الرسل مرغبين ومنذرين، فقد جاء على لسان رسله لساتيتكي ملك فوتة: إنهم مبعوثون من طرف أكبر عبد الله -بعد محمد- ليخبروه بأن الله قد أمره بأن يحمل جميع الملوك على تغيير حياتهم عن طريق القيام بشكل أفضل ومنتظم بالصلاة، والاكتفاء بثلاث -أو أربع- نساء وطررد المهرجين وأصحاب الملذات من حولهم.

وأخيراً فإن الله لا يحب إطلاقاً نهب عباده وبالأحرى قتلهم أو استعبادهم، وأضاف المبعوثون بأن سيدهم لديه سلطة الله حالة الرفض في أن يستخدم ضدهم السلاح وكل الوسائل الأخرى لطردهم من ممالكهم بوصفهم أعداء الله وأعداء شريعته، ويعين عليها من شاء¹³

فالمتحقق لمضامين هذه الرسائل يجدها صادرة عن موقف قوة وثقة بالنفس وإيمان بالنصر المحتوم، فهي بمثابة إنذار أولي لهم يعقبه فتح وغزو في حالة الإعراض.

"والواقع أن حركة ناصر الدين قامت بقلب الأوضاع بصفة جذرية فوضعت تنظيماتاً سياسياً جديداً انصهرت فيه معظم القبائل المتواجدة في منطقة القبلة، ثم أخذت الحركة تتوسع بصفة كبيرة على المستويين: الداخلي والخارجي؛ فأطاحت بالأرستقراطيات الوثنية في فوتا ووالو وكايو وجولوف، ولم تأت سنة 1673 إلا وكانت الحركة قد امتد نفوذها على الضفة الجنوبية لنهر السينغال"¹⁴.

* إجهاض الحركة: أسبابه ومضاعفاته

غير أن ظهور هذه الحركة وتفاقمها واتساعها على المستويين: الداخلي والخارجي ولد

¹⁰ لويس مورو دوشامبونو (Louisse Morodo Chambonneau) إداري شهير ومستكشف السينغال خلال القرن السابع عشر الميلادي، وهذه الوثيقة هي عبارة عن تقرير سري عما سمع أو شاهد من أخبار حركة ناصر الدين وتأثيرها على المصالح الفرنسية في حوض نهر السينغال خلال مقامه في المنطقة، وعنوانها تاريخ التوبنان أو تبديل ملوك وإصلاح دين زنوج السينغال لساحل إفريقيا منذ سنة 1673 حتى 1677م. مذكرة شربيه ص 5 والوثيقة ملحقة بالمذكرة السابقة.

¹¹ تحريف لكلمة التوبة.

¹² راجع: Deux textes sur le Sénégal 1673-1677 P. 338 Chambonneau, bultin de l'ifan:

¹³ المرجع السابق ص 383-339

¹⁴ مقومات الإستقرار وجذور الأزمة في إمارة اترارزة 1677-1800م ص 9 مذكرة تخرج بالمدرسة العليا للأساتذة سنة 82-83 للطالب محمد ولد محمد المختار.

عند المغفرة والأوروبيين -معا- شعورا بالضيق والقلق على مستقبل وجودهم ومصالحهم في المنطقة، خاصة أن أصحاب الحركة أبدوا ضربا من التحفظ في التعامل مع الأوروبيين وخصوصا في مسألة الرقيق -السلعة الرائجة في تلك الفترة- لاعتقادهم أن هذا العمل ظلم وانتهاك لقداسة الإنسان، كما أن امتناع الزوايا عن دفع المغرم في مثل تلك الظروف كان مؤشرا خطيرا بالنسبة إلى حسان، إذ الامتناع عن دفع المغرم له دلالة خطيرة هي رفض السيطرة السياسية لحسان والشعور بضرورة الاستقلال والمشاركة في توجيه مستقبل البلاد السياسي¹⁵

كما أن اعتماد هذه الحركة في تمويل نشاطاتها على العائدات المتأتية من زكوات الفئات التابعة لحسان والزوايا دون تفريق اعتبره حسان ضربا من التحدي ولونا من ألوان الحصار الاقتصادي يستهدفهم على المدى البعيد لأن مصدرهم الاقتصادي الثابت هو عائدات هذه الفئات الغارمة مما يستلزم أخذ الحيطة والحذر حتى تظل الأمور تسير لصالحهم، وظل الصراع ينمو ويتطور يوما بعد يوم بين الفئتين حتى اكتملت الشروط التاريخية لتفجيره فكانت حرب شريبه التي لم تكن إلا طورا من أطوار حركة ناصر الدين الإصلاحية ، فكيف سيتحدد مستقبل هذه الحركة ضمن مجتمع حافل بالتناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والملابسات التاريخية.

لقد اشتعلت نار الحرب عندما امتنع أحد أتباع المغفرة من أداء الزكاة لممثلي ناصر الدين فمثلت حادثة الزكاة السبب المباشر وصبغت الحرب بصبغة دينية فالحرب في ذهن ناصر الدين وأصحابه استمرار لحرب أبي بكر للمرتدين ومانعي الزكاة . واستطاع الزوايا أن يحققوا انتصارات في المراحل الأولى من الحرب، ونتيجة لظهور متغيرات داخلية وخارجية أخذت الهزائم تتوالى عليهم حتى أجبروا في النهاية على الاستسلام ومن أهم تلك المتغيرات: الانقسامات والخلافات في صفوف الحركة وتدخل الأوروبيين إلى جانب المغفرة ودعمهم للأرستقراطيات الزنجية التي أطاحت بها الحركة وتحالف هذه الأرستقراطيات الزنجية مع المغفرة، كل هذه الأمور سهلت تطويق الحركة وإجهاضها، وقد توجت هذه الهزيمة بمعاهدة بالغة الدلالة فرضها الطرف المنتصر على المنهزم ومن أهم بنود هذه المعاهدة :

- تجريدهم من السلاح.
- تكليفهم بحفر الآبار وتخصيص ثلث مائها لحسان.
- استضافة كل حساني جاء إلى فئة الزوايا ثلاثة أيام.
- توصيله إلى أقرب حي من أحياء الزوايا.

ومن الواضح أن هذه البنود الأربعة تحمل أبعادا خطيرة يمكن حصرها في إذلال فئة الزوايا معنويا وإضعافها اقتصاديا، وتوفير مستلزمات الحياة لبني حسان من مشرب ومأكل ومركب.

II-تأثير الحركة على منطقة غرب إفريقيا:

إذا كانت حركة ناصر الدين قد فشلت على المستوى العسكري فقد نجحت إلى حد كبير

¹⁵ المرجع السابق ص 19 لقد اشتعلت نار الحرب عندما امتنع أحد أتباع المغفرة من أداء الزكاة لممثلي ناصر الدين، فمثلت حادثة الزكاة السبب المباشر وصبغت الحرب بصبغة دينية لأن الحرب كانت معتبرة -في ذهن ناصر الدين وأصحابه- استمرارا لحرب أبي بكر للمرتدين ومانعي الزكاة.

على المستوى الديني والثقافي إذ عممت وعمقت الوعي الديني وأحيت روح الجهاد في المنطقة بعد غياب دام قرونا عديدة¹⁶.

وقد أوضح الباحث الأمريكي فيليب اكرتين (P.D. Curitin) مدى الارتباط الوثيق بين الحركات الجهادية في غرب إفريقيا في القرنين: السابع عشر والثامن عشر وحركة ناصر الدين ومدى تأثير الحركات السودانية اللاحقة بها. يقول: لقد انتهت الحرب المقدسة لكن لم ينته بنهايتها تأثير ناصر الدين، فالتقليد الديني الذي أحياه قد استمر كجزء أساسي في الإسلام الموريتاني، وفي جنوب الصحراء، مما أدى إلى بقاء مفهوم الإمامة ماثلا كهدف يمكن الوصول إليه من خلال ثورات دينية¹⁷.

* الحركة الإصلاحية في فوتا ادجالو

لقد شهدت فوتا ادجالو حركة إصلاحية إسلامية عرفت باسم ثورة الأمامي على يد (كارا موكا ألفا) مؤسس مملكة الفلان المسلمة في تلك المنطقة في الربع الأول من القرن 18م، حيث بويع "كاراموكا ألفا" من طرف تسع أئمة وبعد أن بايعوه أمرهم بالعودة إلى مقاطعاتهم وعينهم حكاما عليها وأمر كل واحد منهم ببناء مسجد في مقاطعته وبدأوا يعلمون الناس الإسلام. وقد كانت الدولة الإسلامية التي أقاموا قلعة من قلاع الجهاد في المنطقة. ونشير هنا إلى أن لهؤلاء الأئمة مهام عديدة في مقاطعاتهم نذكر منها:

1- نشر الإسلام عن طريق الإقناع أو الجهاد.

2- نشر التعليم الإسلامي واللغة العربية.

3- إشاعة العدل والإحسان.

4- جمع الضرائب لبيت مال المسلمين.

لقد كانت هذه الدولة في حرب مع الدول غير الإسلامية في المنطقة كالدول الوثنية، كما كانت لها علاقة وثيقة مع الدول الإسلامية في بنود وماسينا وفوتاتور لأنهم كانوا يقسمون المنطقة إلى دار كفر ودار إسلام. وقد كان المذهب المالكي هو المذهب السائد، وكانت الفتاوى تصدر عن مجلس العلماء الذي يجتمع دوريا في مدينة "فاغبا" المقدسة، وفور صدور الأحكام يتم تطبيقها من طرف محاكم إسلامية توجد في المقاطعات، وعلى مستوى العاصمة كان "المامي" يجلس مرة أو مرتين للفصل في القضايا المهمة¹⁸.

وبعد وفاة المؤسس كاراموكا خلفه إبراهيم سوماري ماودو (1751-1784) الذي وسع نفوذ الدولة وعمق تنظيمها الإمامي تأسيسا واقتداء بالإمام ناصر الدين.

¹⁶ انظر نتائج الحرب ص 88-89 من مذكرة "شربيه" و أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي من موريتانيا نسخة منقحة.

¹⁷ المرجع السابق ص 18

¹⁸ حركة الجهاد والإصلاح في إفريقيا الغربية من نهاية القرن (17) إلى بداية القرن (19) الميلادي للطالب أحمد بن محمد حبيب الله ص 54 مذكرة تخرج من جامعة انواكشوط - 86-87 ص: 54 بتصرف

* الحركة الإصلاحية في فوتاتورو:

أما على مستوى "فوتاتورو" فقد قاد الشيخ سليمان بال حركة تورودية إسلامية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ضد مملكة آل تنكلا (النظام السراتيكي) التي حكمت "فوتاتورو" طيلة الفترة الممتدة ما بين 1512-1776 واستطاعت هذه الحركة القضاء على النظام السراتيكي الذي أهلك الحرث والنسل وعاث في الأرض فسادا. ومن أهم الأهداف التي رسمتها هذه الحركة:

1- إقامة دولة إسلامية تعتمد القرآن والسنة النبوية وإعادة الاعتبار للعلماء والمشايخ.
2- العمل على حل الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها البلاد. يقول الشيخ سليمان بال منتقدا النظام القائم وموضحا أهداف الحركة وبرنامجها «إن النظام السراتيكي لا يخدم إلا مصالحه الخاصة ولا يهتم بمصالح المجتمع، ويجب أن نعيد كرامة بلادنا بأيدينا وذلك بتوفير هذه العناصر الثلاثة: الوحدة ، النظام والإخاء سعيا إلى خلق مجتمع مستقل ومزدهر.

أما أهم نقاط برنامجه الإصلاحي فقد لخصها في المبادئ التالية:

- حل الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها البلاد.
- إقامة دولة إسلامية تعتمد على القرآن والسنة.
- محاربة الظلم والاسترقاق بكافة أشكاله.
- كسر مود حرمة وهو الضريبة السنوية التي كان سكان فوتاتورو يدفعونها إلى البياضين.

- تحقيق المساواة بين جميع فئات الشعب.

- محاربة كل التقاليد غير الإسلامية.

- نشر الدين الإسلامي وتوسيع رقعته».

أما شروطه لتولي الإمامة فقد وردت على شكل أوامر على النحو التالي:

- اختاروا عالما مسلما عادلا يعمل ولا يريد غنى الدنيا لا لنفسه ولا لأولاده.
- اخلعوا كل إمام رأيت غناه يزداد واغتصبوا كل ممتلكاته.
- حاربوه إذا رفض التنازل واخرجوه من البلاد.
- احذروا أن تعود الإمامة وراثية
- يجب أن يعين الإمام بغض النظر عن المنطقة التي ينتمي إليها.
- يجب أن يكون الإمام حرا بالغا وعمره على الأقل 40 سنة عمر الأنبياء ، ثم عليه أن يطبق الشريعة الإسلامية ويدافع عن المسلمين.

ونستشف من الشرطين اللذين وضعهما الشيخ سليمان بال:

- احذروا أن تعود الإمامة وراثية.

- يجب أن يعين الإمام بغض النظر عن المنطقة التي ينتمي إليها.

أنه يشير إلى عدم جواز احتكار بعض القبائل لمنصب الإمامة دون الأخرى تبعا للأصل أو الجنس أو الوزن الاجتماعي، ويعضد ذلك توصيته لأعضاء الحركة التورودية في حالة وفاته بتعيين أحد الشخصيات التالية أسماؤهم:

- عبد القادر كن في مدينة أبي.

- تفسير مقلي في مدينة جابا.
- عبد الكريم جاونطو في مدينة سين بال.
- تفسير أحمد حمات في مدينة كتل¹⁹.
فإلى أي الأربعة آل الحكم بعد وفاة مؤسس الحركة الشيخ سليمان بال؟ وكيف كان تجاوب المجتمع الفتوي مع النظام الإمامي الجديد؟ وكيف سيتحدد مستقبل هذا النظام في مجتمع حافل بالتناقضات؟

-النظام الإمامي في عهد عبد القادر كن:

لقد تم اختيار عبد القادر كن إماما عاما على فوتاتورو سنة 1776 بعد أن توفرت فيه شروط الإمامة السابقة التي سنّها رائد الحركة الشيخ سليمان بال وهو عالم فقيه مارس التدريس لأكثر من 20 سنة وأسس العديد من المدارس الإسلامية الأمر الذي أكسبه شهرة ومكانة في مدينة أبي في إقليم دمغا وقد أطلق عليه الناس ألقابا مختلفة من تيرنو (الأستاذ) إلى "تفسير" و "ألفا" (مفسر القرآن) و "الفك" (الفقيه) و "ألمان" (الإمام)²⁰.
وقد عمل الإمام عبد القادر مذ توليه السلطة على تحسين ظروف المجتمع الاقتصادية وتدعيم أركان الدولة ونشر الإسلام حيث بنى المساجد والمعاهد لتعليم القرآن وكافة العلوم الشرعية، الأمر الذي أدى إلى التجاوب السريع مع دعوته الإمامية وتقبل المجتمع لها.
وقد تمثلت سياسته على المستويين الداخلي والخارجي بالحزم والصرامة حيث افتتح خلافته بدعوة إلى أول اجتماع للمجلس العمومي للدولة (السلطة التشريعية) الغرض منه رسم السياسة العامة والتشاور حول هموم الدولة الآنية والمستقبلية، وقد عرف هذا المؤتمر بمؤتمر "تشيلن" وقد دارت المناقشات بين أعضاء المجلس حول ثلاث مسائل رئيسية:

- مسألة الرق التي تهدد المنطقة.
- مسألة الحدود.
- مسألة الجهاد، أي كيف يمكن مواجهة الأخطار التي تحيط بفوتاتورو.
وقد صادقوا إثر هذا الاجتماع على الأمور التالية:
بالنسبة للنقطة الأولى: فقد صادق المجلس على مشروع قرار يقضي بمنع المراكب التجارية الفرنسية بالمرور عبر النهر إلا بإذن من الإمام أو مسؤولي الدولة.
أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد صادقوا على اعتبار "دقانا" آخر أطراف البلاد غربا و "دمبكان" نهاية الحدود الشرقية ومن الشمال كل المناطق التي يسكنها السود، أما في الجنوب فيعتبر نهاية إقليم "فرلو" آخر حدود الدولة الجنوبية.
أما بخصوص النقطة الثالثة فقد قرروا القيام بالجهاد كلما دعت الضرورة إلى ذلك²¹.

-بروز الحركات المناوئة ومقتل عبد القادر كن:

لقد كان الإمام عبد القادر كن شديدا في الله لا يخاف لومة لائم حيث كان يقيم الحدود على أقارب وزرائه ومستشاريه المقربين وأعضاء الحركة النورودية أمثال مختار كديج (قاضي

¹⁹ مقومات الاستقرار واستمرارية الاضطرابات في تطور النظام الإمامي في فوتاتورو 1776-1890م مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين للطالب كلى أمودو ممدو سنة 83-84 ص 4-7 بتصرف.

²⁰ المرجع السابق ص: 13

²¹ المرجع السابق ص: 40

القضاة) وألمان سوطي الشيء الذي جعلهم ينظمون حركة مناوئة للإطاحة به يقول الشيخ موسى كمرا «كثير التحايل للنجاة من وجه العدالة -وكل ذلك فالإمام يقابله بالحزم والقوة- وقلما يتأثر الإمام عبد القادر بلومة لائم في حدود الله وكان كثير القول بان استمرار الدولة الإسلامية مرهون بإقامة حدود الله»²². وقد ظلت المعارضة تنمو يوما بعد يوم حتى قتل سنة 1806، وقد خلف مقتله اضطرابا كبيرا داخل المجتمع وخارجه حيث لم يستقر الحكم بعده لأي أحد، نذكر على سبيل المثال مختار كديج الذي عين خلفا له والذي أقيل أو استقال بعد فترة وجيزة.

ونشير هنا إلى أن الإمام عبد القادر خلفه ثلاثة وثلاثون إماما حكم بعضهم أكثر من مرة مثل يوسف سيري لي، والمامي محمد وبران اللذين حكما فوتاتورو كل على حدة حوالي إحدى عشرة مرة كما بقيت فوتاتورو فترات متعددة ومتفاوتة بلا إمام²³.

وقد استمر هذا النظام الإمامي حوالي 114 سنة أي من (1776-1890) وتعاقب في حكمه 44 إماما وكان المعدل العام لحكم كل إمام لا يتعدى سنتين ونصف.

وقد كانت الفترة الذهبية للدولة الأمامية التي تمثلت في عهد عبد القادر كن و التي لم تتجاوز ثلاثين عاما مثار إعجاب للكثير من العلماء الموريتانيين الذين كانوا يعيشون تأثيرات غياب سلطة مركزية في البلد، حيث رأوا فيها تجسيدا لطموحاتهم في إقامة دولة الإسلام على الأرض فبايعوا أنمتها واعتبروهم عدولا يقتدى بهم. يقول المختار بن بونه في قصيدة طويلة يمدح بها الإمام عبد القادر كن ويهنئه بمناسبة انتصاره على أمير اترارزة اعلي الكوري:

حمدت الله خالقنا على ما	قد اولانا من النعم الجسام
سألت الله مغفرة الخطايا	لعبد القادر الملك الهام
ويهديه صراطا مستقيما	وينصره على طول الدوام
عباد الله قولوا لي جميعا	أمينا إذ دعوت لذا الإمام
قد اعترفت له بالعدل فيما	يحاوله بنو سام وحام

أما شيخ العلماء في بلاد شنقيط حرمة بن عبد الجليل فقد مدح عبد القادر كن واعتبره وحيد زمانه في العلوم الظاهرة والباطنة، بل بلغت درجة إعجابه به مستوى رفيعا حين قارنه بعبد القادر الجيلاني يقول:

قد فقت كل ملوك الأرض قاطبة	وفقت في العلم والعرفان كل ولي
ما سار سيرك في شأو العلا أحد	إلا سميك عبد القادر الجيلي

أما النابغة الغلاوي فقد كان على اتصال مباشر بالإمام بعبد القادر كن وهذه رسالة تؤكد ذلك أوردها العالم الموريتاني الشيخ موسى كمرا في كتابه: "زهور البساتين" يقول فيها إن المامي عبد القادر كن زود بها صديقه النابغة الغلاوي عندما زاره وهي عبارة عن وصية تحض موظف الإمامة على الاعتناء بالعالم البيطاني وإكرامه ، قال الشيخ موسى كمرا أنه وجدها بخط المامي عبدل سيري الذي كتبها نيابة عن المامي عبد القادر وهذا نصها:

²² الشيخ موسى كمرا: زهور البساتين في تاريخ بلاد السودان الغربي ص552 (ج1). قسم المخطوطات العربية في المعهد الإفريقي التأسيسي بجامعة دكار - السنغال.

²³ مقومات الاستقرار ص:53 مرجع سابق

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد من أمير المؤمنين عبد القادر كن إلى من سيقف على هذا الصك من قاض ومفت ووزير ورئيس قرية من سلي إلى هورفود وبرلابه وأهل كبير هايرمن بريهم وبحريهم من دفلة وكسكى ووالد وهلبية إلى آدم وهلوار ودما ومقطع. وما غسب ودي إلى جملة ونظرائهم، موجه إليكم بإعلامكم بأن حامل هذا الكتاب هو سيد محمد الغلاوي شيخنا، فكل من مر به منكم فليحسن عليه وعلى عياله من فراش وضيافة وترحيب حتى يجاوزوا البحر ومن نزلوا عليه من أهل البحر وأرادوا الجواز من عنده فلا يأخذ منهم ولا من رفقتهم فتيتلا ولا فقيرا ولا قطميرا ومن امتثل بما أمر به فجزانا جزاءه الله أحسن جزائه، ومن خالف فلا يلومن إلا نفسه». وهذا ملحق بالرسالة: «من أمير المؤمنين إلى رئيس كل موضع أن ينوب عن النابغة وعن قومه في كل ما نابهم من خصام من سود وبيض»²⁴. وكان للنابغة الغلاوي رأيها أيضا في الإمام عبد القادر كن الذي عبر عنه في "منظومته عبر الزمان" التي وصف فيها تقلب الأحوال وتلاعب الدنيا بأهلها مبينا أنها لا تدوم على حال وأن الشيء إذا بلغ الحد انتهى وأنها يوم لك ويوم عليك ثم تطرق بعد ذلك إلى وصف زوال دولة الإمام عبد القادر مبينا سبب سقوطها ذاكرا أن "بمبارة" الوثنيين هم المسؤولون بالدرجة الأولى عن إسقاطها موضحا المصير المجهول الذي ينتظر بلاد فوتة من اضطراب سياسي وتفكك اجتماعي يقول:

ولعبت بالمامي عبد القادر	وغادرت	بين	كل	غادر
وجيشته له من «البنابر»	من	هد	ما	بناه من منابر
ومزقت ما عنده من خزنه	وصيرت	دولته	للخزنه	
وفات فوتة عدل ذاك الصالح	وأصبحوا	من	بعد	قوم صالح
لذاك لم يصلح لها إمام	عوض	كما	قد	قاله أعلام

أما الشيخ محمد المامي فقد تجاوز مستوى الاتصال المباشر بأئمة فوتاتور والاستفادة من تجاربهم إلى محاولة جعل النظام الذي شيده والذي أطلق عليه اسم "العمالة البوصيائية" نموذجا للدولة الإسلامية التي يرى وجوب قيامها في البلاد التي وصفها "ببلاد الفترة" و"بلاد السبية" يقول: «وأما من كان فيهم زعيم كأحمد لب والمان بيكر وكانت فيهم جماعة لا تخشى معها الفتنة فإن أحكامهم كإحكام الإمام سواء كانوا أهل بادية أو حاضرة وقد شاهدت المان بيكر "بجولمة" يقيم الحدود فله دره»²⁵.

ويقول أيضا: «ونحن أهل بادية في فترة من الأحكام ما بين العمالتين الإسماعيلية والبوصيائية»²⁶.

* حركة الحاج عمر الفتوي الجهادية:

لقد كان للحاج عمر بن سعيد تال الفتوي (1210-1280هـ/1796-1864م) دور كبير في نشر العلم في المنطقة وإحياء روح الجهاد فيها حيث قاد حركة جهادية شملت مناطق واسعة من حوضي نهري السينغال والنيجر استهدفت توحيد السكان المسلمين لتحقيق هدفين رئيسيين:

²⁴ الشيخ موسى كمر: زهور البساتين ج1، ص: 548-549 مخطوط - مصدر سابق.

²⁵ للشيخ محمد المامي كتاب البادية ص: 51، مخطوط - قسم المخطوطات بمكتبة دار الضياء للدراسات والنشر تحت رقم 31.

²⁶ الشيخ محمد المامي: مقدمة في علم التربيعة مخطوط - قسم المخطوطات بمكتبة دار الضياء للدراسات والنشر تحت رقم 19.

أ- نشر الإسلام في المناطق الوثنية المتاخمة للبلاد الإسلامية مع القضاء على جيوب الوثنية التي تتخلل بلاد المسلمين.

ب- مقاومة النفوذ الاستعماري الفرنسي الآخذ في الهيمنة انطلاقاً من مدينة سانلويس على مصب نهر السنغال. وقد حقق الحاج عمر سلسلة من الانتصارات العسكرية الحاسمة على طريق هدفه هذين، وأقام دولة إسلامية مرهوبة الجانب أقضت مضاجع الفرنسيين وحدثت من سرعة توسعهم ونشرت الإسلام في ربوع كثيرة لم يدخلها من قبل. ونشير هنا إلى أن حركته الجهادية اصطدمت بقوة عديدة منها: الفرنسيون والوثنيون والمسلمون الذين تحالفوا مع هؤلاء وأولئك لأسباب تاريخية شتى.

وواصل خلفاؤه بعد موته ترسيخ دعائم الدولة وحمل راية الجهاد ضد التوسع الاستعماري الفرنسي، فكان ما يدعو الفرنسيون إمبراطورية "التوكولور" واحدة من أقوى قلاع المقاومة في غرب إفريقيا وتطلب القضاء عليها عدة عقود²⁷.

ونشير هنا إلى أن أغلب علماء البلد قد ساندوا هذا الجهاد وخصوصاً في مراحل الأولى ضد الوثنيين حيث اعتبروه فتحاً إسلامياً سيقود البلاد والعباد إلى الخير والأمان. يقول الشيخ محمد المامي في قصيدة يمدح بها الحاج عمر الفوتي ويبارك دعوته الجهادية ويخاطبه فيها مخاطبة التلميذ لشيخه عارضاً عليه فيها بعض مؤلفاته مبيناً أن ما سلم منها فهو مقبول وما لم يسلم منها فهو مردود يقول:

سلام على من نور مغناه فأنح
فأضح
ومن نوره للشمس والبدر

ومن ضره للكفر ماح وهادم
ومن نفعه للخلق غاد ورائح
ثم يؤكد إيمانه بدعوته واستجابته المطلقة لها مبيناً أنه قائد مجاهد كانت المنطقة تنتظر ظهوره:

لقد شرح الرحمن صدري للذي
فكنا نرى للغرب عدلاً يقيمه
له الله صدر العارف البر شارح
عليه بقرب المصطفى النور لائح
وفي عمر الحاج الموفق وسم ما
نحاوله في ذاك والكنز لامح²⁸

أما أحمد ابن محم فقد خصه بترجمة وافية تعكس تقديراً وإجلالاً كبيرين لهذا الرجل ولاغربة في ذلك إذا علمنا أنه يشترك معه في الطريقة الصوفية (التجانية). يقول: "شيخنا عمر بن سعيد الفوتي فتح الأقاليم والبلدان، وكسر الأصنام والأوثان، وأنار القلوب والأبدان، وطهر السرائر والأعيان، له سيوف ورماح حسيتان، يجاهد بهما المارقين عن السنة المحمدية، وسيوف ورماح معنويتان، في علوم الحقيقة وأسرار الطريقة التجانية"²⁹.

أما أحمد بن بدي فقد عكس- هو الآخر- ارتياح الزوايا لهذه الدعوة لأنهم رأوا فيها أملاً يخلصهم من ظلم الزوايا والفرنسيين يقول "واعلموا أن الزوايا كانوا في غاية الاعتقاد، مسرورين بقدمكم البلاد، لأن النصارى- دمرهم الله- أفسدوا في الأرض أي فساد، نهبوا

²⁷ د. أحمد بن الحسن: الحاج عمر الفوتي وبلاد شنقيط - مجلة الضياء العدد (7) نوفمبر 1997، ص124

²⁸ عبد الله بن أحمد بن حمدي: التعدد القومي في موريتانيا وأثره على تماسك المجتمع (مقاربة سوسيو تاريخية) ص:9

²⁹ أحمد ابن محم العلوي: روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر أهل الطريقة مخطوط ص 12 نسخة ابنه لمرباط ابن محم.

الأموال وأخذوا النساء والأولاد، يغيرون ويعيثون، ولاصاد يصدهم عما يريدون، وحسان وما حسان؟ فهم على ما هم فيه منذ زمان، فصار الزوايا شاة بين ذئاب، بحيث لاتسمع أصوات الكلاب، فلما وقع من أمر الجيش ما وقع، من أخذ أمتعتهم والزرع، أنشدوا بلسان حالهم، وإن لم يقولوه بلسان مقالهم:

يا ويلنا قد ذهب الوليد وجاءنا من بعده سعيد³⁰

أما ابن انبوجة فقد بارك دعوته هو الآخر حيث خصها بقصيدة تزيد على (100) المائة بيت مدح فيها الرجل معتبرا إياه مجددا كانت الأمة في حاجة إليه لتجديد أمور دينها وجهاد الكفار والخارجين عليه يقول:

أكارم هذا الدهر هم زينة الدهر	وأيامهم فيه كأعياده الغر
بهم تزدهي الحاجات في ثوب نجحها	وتبتهج الآمال في حلل الظفر
وأخلاقهم تملي على مبتغي الندى	فتكتب في لوح القريحة بالحبر
..إمام الندى شيخ الهدى عمر الرضى	سليل سعيد المرتضى الماجد البر
إمام طوى دنياه في دين ربه	وأنفق في مرضاته زلف العمر
خلافته أكرم بها من خلافة	وكان بها نعم الخليفة في الأمر
وحدة رأس الشوك يوم بروزه	ومن سبقت حسناه لم يخل من سر
وما زلت ملحوظا من الله في الصبى	بنظرة تسديد وصون عن الشر
ولما استويت اشتد كاهل ديننا	بساعدك المقرون باليمن والقهر
فأحييت رسما دارسا من علومه	وشيدت بنيان الخلافة في قصر
وجاهدت في مولاك حق جهاده	وقمت بأمر الله منشرح الصدر
فأصبحت مخصوصا بحسن سياسة	تدور ودراء المفسدات التي تجري
تدور رجاها بالمصالح حيثما	موطأة الأكناف مشدودة الأزر
مطرزة بالحزم محكمة العرى	تشاب بعطف مثل عطف أبي بكر
قد اكتنفنا حدة عمرية	عليه بعزم كالحسام إذا يفري
إذا دهم الأمر العظيم تحاملت	وتخمير رأي وهو أحسن من در
وقوة عقل في كمال تثبت	فتمضيه محمود العواقب كالصبر
فيصبح وجه الرشد كالشمس والضحي	جهالات أهل العصر أردية الستر
وحلمك في أرجائها مسدل على	على قدرة يغني المسيئين عن عذر
وعفوك فيها شافع لجناتهم	وحبك فيها أغنياك عن الزجر
وهيبتك العظمى التي في نفوسهم	تضلع جل الناس من مائه الغمر
وجودك فيها طافح الموج بحره	سرى الماء في عنقود أخضر من خضر
وعذلك سار في مريدك مثلما	وقد حكمت فيهم لدان القنا السمر ³¹
وسيفك في أعداء ربك راسب	

³⁰ أحمد بن بدي: الدرع والمغفر في الرد عن الحاج عمر تحقيق محمد الأمين بن محمد، مذكرة تخرج من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية في انواكشوط سنة 1986-1987 ص: 12.

³¹ عبد الله بن أحمد بن حمدي: ديوان الشعر الإسلامي في موريتانيا جمع وتحقيق ودراسة- من فاتحة القرن 12 هـ - 1418 ، أطروحة لنل دكتوراه الدولة- السنة الدراسية 1997-1998، كلية الآداب والعلوم الإنسانية I - جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء بالمغرب ص89-95.

ولعل هذا هو ما دفع الباحث بوبكر باري إلى وصف دعوة الحاج عمر الفوتي وغيرها من الدعوات الإصلاحية في بلاد السودان الغربي بأنها استمرار لدعوة الإمام ناصر الدين يقول: "إن الحاج عمر هو -بلا شك- أجل من تابع حمل مشعل الحركة الإصلاحية في المنطقة التي لم تفتأ منذ ناصر الدين في القرن 17، تهز الوضع السياسي والاجتماعي والديني في منطقة سنغامبيا"³²

III: تأثير الحركة على موريتانيا في القرون اللاحقة:

أما على مستوى موريتانيا فقد كان وقع الهزيمة شديدا على فئة الزوايا، ورغم شدة وطأة المتغلبين، فقد ظهرت دعوة محتشمة سلمية تخفي حنينها وتعلقها بدعوة ناصر الدين في جيل الهزيمة الأول، ستتطور وتنضج في الجيل الثاني.

أ- جيل الهزيمة الأول والدور الإصلاحي المحتشم في القرن 12 هـ.

لقد عاش هذا الجيل في فترة حرجة من تاريخ البلد تتميز بالسيطرة المطلقة لقبائل بني حسان سياسيا وعسكريا من جهة وبتعاضد النفوذ الديني والثقافي لفئة الزوايا من جهة أخرى. والجدير بالذكر أن فئة الزوايا عانت ضروبا من الظلم والاضطهاد لا حصر لها من بني حسان بعد هزيمة شريبه السابقة، وسنتعرف على الدور الإصلاحي لهذا الجيل من خلال أبرز شخصية من شخصياته عاشت انعكاسات هذا الواقع الجديد وسجلتها في خطاب مكتوب، ذلك هو محمد اليدالي.

فهل كان محمد اليدالي واعيا بخطورة الوضعية التي آلت إليها فنته الاجتماعية؟ وإذا كان واعيا فكيف استجاب لهذه الوضعية الحرجة؟ وكيف تجلت دعوته الإصلاحية؟

وهل هي دعوة جديدة أم استمرار لدعوة ناصر الدين باستراتيجية جديدة تتلاءم و الظروف التاريخي المعيش؟

ولد محمد اليدالي سنة 1096 و توفي سنة 1166 هـ (1685-1754م) بعد انتهاء الحرب بعشرة أعوام. حيث كانت وضعية الزوايا سيئة للغاية، فالقبائل الحسانية قد بسطت كامل سيطرتها عليهم واشتدت وطأتها بالسلب والنهب والغرامة الباهظة فشرع بخطورة الوضعية التي آل إليها مجتمعه واستطاع أن يستجيب لها بطريقة لا تثير حنق بني حسان الذين يترصدون الدوائر بالزوايا ويتحينون الفرص لإهانتهم، فتجلت دعوته في مظاهر ثلاثة:

أولاً: في شعوره المبكر بالخطر الذي بات يهدد المجتمع الزاوي وينذر بالقضاء عليه، لذا جاء كتابه "شيم الزوايا" دعوة إلى الإبقاء على المجتمع الزاوي كيانا مستقلا له خصائصه ومميزاته وقواعده السلوكية، وتحذيرا من عواقب الانحراف في تيار بني حسان والإرتواء في أحضانهم، فالكتاب تأصيل لأخلاقيات وسلوكيات المجتمع الزاوي ورفض -بطريقة ضمنية- لجميع الأخلاقيات السائدة، باعتبارها طارئة وشاذة، كما أن مضمون الكتاب يمكن اعتباره - بصورة غير مباشرة- تنويرا لهذه الفئة واستنهاضا لها وفضحا لجملة من الممارسات البشعة

التي كان يمارسها الطرف الآخر³³.

أما ناحيته الإصلاحية الثانية فتتجلى من خلال كتابه «أمر الولي ناصر الدين» حيث مارس في هذا الكتاب نوعا من التغيب والتجاهل المقصود لدور ناصر الدين كقائد سياسي وكزعيم ديني استجابة لمرحلته التاريخية الحرجة، ومحاولة لجعل ناصر الدين الولي حاضرا في الأذهان لدرجة تسمية كتابه بـ "أمر الولي" وذلك لهدف واضح هو تكوين عقدة الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب عند بني حسان لأنهم يمثلون قتلة "الولي" ناصر الدين، وقد كان لهذه الوسيلة الدور الفعال. إذ أدت إلى تراجع بعضهم عن حياته السابقة من نهب وسلب، وقد عرفت هذه المجموعة محليا بـ "التياب"

أما ناحيته الإصلاحية الثالثة فتتمثل في مدائحه النبوية التي احتلت حيزا كبيرا من ديوانه³⁴.

ولهذه المدائح دلالة هامة تتجسد في محاولة الرجوع إلى العصر الذهبي للإسلام ومحاولة ربط المجتمع به؛ تعويضا عن ذلك الواقع البائس، واقع الظلم والظلام والقهر والاستبداد. هكذا نلاحظ أن مسار محمد اليدالي وإن اختلف في الظاهر عن مسار ناصر الدين فإنه استمرار له بطريقة جديدة تتناسب والحالة التاريخية للمجتمع آنذاك.

ب- جيل الهزيمة الثاني والدور الإصلاحي الإحتجاجي في القرن 13هـ.

وبعد جيل الهزيمة الأول نصل إلى جيل الهزيمة الثاني، جيل القرن 13هـ / 19م الذي عاش فترة من الاضطراب السياسي الداخلي والتهديد الخارجي. فكيف كانت استجابة هذا الجيل لوضعيته؟

لقد صاحب ظهور هذا الجيل شعور مبكر لدى النخبة المستنيرة من أفراد بضرورة إقامة سلطة مركزية تضع حدا للفوضى السائدة، وهو ما ولد تسميات مختلفة لهذه البلاد، جاءت تعبيراً عن الوضعية الخطيرة التي آلت إليها، ومن أبرز هذه التسميات وأكثرها دلالة على الظرف التاريخي المعيش "بلاد الفترة"³⁵ "البلاد السائبة"³⁶ "بادية في فترة من الأحكام"³⁷. وقد ساعد في تعميق الوعي السياسي لدى مستنيري هذا الجيل عوامل منها الداخلي ومنها الخارجي.

أما العوامل الداخلية فتتمثل في الوضعية التي آلت إليها البلاد من حركة سلب ونهب لممتلكات العزل المستضعفين الذين لا يملكون سلاحا ولاجاها يدافعون به عن أنفسهم وأموالهم. وأما العوامل الخارجية التي مارست تأثيرها على مستنيري هذه الفئة فيمكن تصنيفها كالتالي:

1- الحركات الإصلاحية والجهادية التي ظهرت في الممالك الزنجية في القرن 18 والتي

عرفت بحركات الأمامي³⁸.

³³ تحقيق كتاب شيم الزوايا مرجع سابق ص5

³⁴ راجع ديوان محمد اليدالي جمع وتحقيق الطالب الأمين بن أكاه مذكرة تخرج بالمدرسة العليا للأساتذة سنة 1982م.

³⁵ الشيخ محمد المامي: كتاب البادية ص71

³⁶ الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي: الرسالة الغلاوية مخطوطة ص135-136.

³⁷ الشيخ محمد المامي: مقدمة في علم التريبع مخطوط ص1

³⁸ راجع با شيخ عمر: نشأة النظام الإمامي في فوتاتور 1760-1790 مذكرة تخرج بالمدرسة العليا للأساتذة سنة 1982-1983

2- الدولة الإسماعيلية في المغرب وما اشتهرت به من تقدير وتشجيع للعلم والعلماء³⁹ مما دفع ببعض مستنيري هذه الفئة إلى الإتصال بها مباشرة أو عن طريق المراسلة.

3- أما العامل الثالث والأخير فيتمثل في الخطر الفرنسي الذي يهدد البلاد.

كل هذه العوامل مجتمعة- من فساد سياسي وتفكك اجتماعي وتهديد خارجي- هي التي دفعت مستنيري هؤلاء القوم إلى التفكير في تغيير هذا الواقع، لذا جاءت تصوراتهم وأفكارهم متباينة على مستوى الوسائل، متفقة على مستوى المقاصد، فهم متفقون على أن مصدر الظلم والاضطهاد الداخليين هو حسان وأن مصدر التهديد الخارجي يتمثل في الفرنسيين، لكنهم مختلفون في الطريقة التي يجب أن يتم بها تغيير هذا الواقع. حيث يمكن تلمس ثلاث اتجاهات أساسية هي:

- اتجاه الدعوة إلى الجهاد.

- اتجاه الدعوة للجهاد ونصب الإمام.

- اتجاه الدعوة إلى التعايش السلمي وإصلاح ذات البين.

وسأحاول أن أعرف بكل واحد من هذه الاتجاهات بصورة موجزة.

1- **اتجاه الدعوة إلى الجهاد:** أبرز ممثلي هذا الاتجاه الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيديا(-1247- 1285هـ) واجدود ولد اكتوشن (ت1274 هـ)، وبابه بن أحمد ببيه(ت1276 هـ) وغيرهم، وقد ركزوا جميعا على إبراز أهمية الجهاد في الدنيا والآخرة مبينين أنه المخرج الوحيد من الأزمة المعيشة بتجلياتها المختلفة، يقول سيد محمد ولد الشيخ سيديا مستنهما الهمم داعيا إلى حمل السلاح ذاكرًا أن ذلك هو الطريق الصحيح لاسترداد الكرامة والتمكين في الأرض:

بلغ لمن لاقيت ممن يدعي	إن لم يضمن عليك بالإصغاء
أن اتباع المصطفى وصحابه	ومن اقتدى بهم من القدماء
في وضع أسلحة بها عزوا	على من سامهم خسفا من الجهلاء
مني التحية والسلام وأنه	تالله أكذب من على الغبراء
ما صان أحمد والصحابه دينهم	إلا بعز الله ذي الآلاء
وبواتر وموارن مسنونة	وسوابغ وسوابق وإباء
ومدججين كريمة أحسابهم	شم الأنوف أعزة شجعاء
وإذا المنية رآها غيره صابا	رأها هو كالصهباء
ليقينه أن المجاهد ميتا	أو قاتلا قطعا من السعداء
فبذا يكون الناس ناسا لا بما	من ذلة ألف الأوان أولاء

ثم صرخ في وجوههم قائلا إن هذه الإهانات التي يتعرضون لها ليل نهار لا يمكن أن يرضى بها حر أبي داعيا إلى الجهاد والمواجهة:
لا حر يرضى ما رضىتم أنتم
من نهب أموال وسفك دماء

³⁹ راجع الحياة العمرانية ص51 لمحمد عبد الله بن البخاري بن الفلالي (مخطوط) والسلطانية للشيخ محمد المامي.

وهجوم دور وابتزاز ملابس	وقران شيب واستباء نساء
وأليم ضرب باليدي وبالعص	ي على المحيا أو على العلباء
إلى أن يقول:	
ولموت من هو هكذا خير له	لو عاش أزمانا من الأحياء
ليس امرؤ من ذا استراح بميت	الميت حقا ميت الأحياء
وكفى القتل مدافعا عن ماله	عد النبي له من الشهداء

ثم ختم دعوته لجهاد "من وصفهم بالجهال" أي بني حسان ذاكرا أنهم فرضوا ما يمكن اعتباره جزية وإتاوة معلنا أن الموت أفضل من الخضوع والاستسلام لما في ذلك من إضعاف للدين وإذلال لأهله يقول:

للموت خير والإتاوة والجزى	من مثل ذا من ذلة الحنفاء
لا يردع الجهال عنك كضربة	بمهند أو طعنة نجلاء ⁴⁰

أما موقفه من النصارى فلا يقل حدة عن موقفه من بني حسان الذين وصفهم بشتى النعوت المشينة "الجهال" ، "الصوص" يقول منبها إلى خطورة المد النصراني في المنطقة داعيا إلى الوحدة والتلاحم لمواجهة الخطر المحدق بالبلد وطنا فحضارة:

حماة الدين إن الدين صار	أسيرا للصوص وللنصارى
فإن بادرتموه تداركوه	وإلا يسبق السيف البدارا
.. وروم عاينوا في الدين ضعفا	فراموا كل ما راموا اختبارا
فإن أنتم سعيتم وانتدبتم	برغم منهم ازدجروا ازدجارا
وإن أنتم تكاسلتم وختمتم	برغم منكم ابتدروا ابتدارا
فألفوكم كما يبغون فوضى	حيارى لا انتداب ولا ائتمارا ⁴¹

وإلى هذا الحد يظل الأمر يتعلق بظلم داخلي خال من أي دافع عقائدي، لكن الوضع سيصبح أخطر حين ينضاف إلى هذا الظلم الداخلي عدوان خارجي ذو دوافع عقائدية وسياسية، ذلك هو العدوان الفرنسي الذي نجد اجدود يصور مشهدا منه في الحرب المعروفة «بحرب محمد الحبيب» (ت: 1277) مع النصارى حيث يقول في مقطع من قصيدته يصور وقع هذا العدوان على المجتمع:

حاصر المسلمين جند النصارى	بيد الله أن يزيل الحصارى
ويبير العدا وينصر قوما	أكثر فيهم النصارى البوارا
فترى الناس في الحصار سكارى	لا لعمرى وما هم بسكارى
أثخوهم وأوثقوا وأغاروا	رب فانصرهم على من أغارا

⁴⁰ راجع القصيدة في ديوان الشعر الإسلامي في موريتانيا (من فاتحة القرن 12هـ-1418هـ) جمع وتحقيق ودراسة ، أطروحة لنيل دكتوراه دولة سنة 1998-1999، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، ص 117-119 مرجع سابق.

⁴¹ المرجع السابق ص: 155

وسبوا منهم النساء الغواني والأيامى واستعبدوا الأحرار.

وهو عدوان يبدو إلى جانب شموله أنواع البطش شاملا كذلك على مستوى الزمان إذ هو قائم على صيغ الماضي: "أثخنوهم، أوتقوا، سبوا، استعبدوا..." مقرونة بالدعاء "بيد الله أن يزيل الحصار"، "رب فانصرهم"، فهو إذن ماضٍ مستمر في الحاضر⁴².

ب- اتجاه الدعوة إلى الجهاد ونصب الإمام: أبرز رواد هذا الاتجاه الشيخ محمد المامي (1202- 1282هـ) ومحض بابيه بن ابيد (1185- 1277هـ) وألفغ بن سيد أحمد (كان حيا سنة 1247هـ).

لقد انتبه هذا الفريق إلى ضرورة المزوجة بين الدعوة إلى الجهاد والدعوة إلى نصب الإمام لأنهم أدركوا أن فاعلية الجهاد وجدواه متوقفة على إقامة سلطة مركزية توجه المجتمع وتنظم شؤونه الأمر الذي يبدو جليا من خلال رؤيتهم الإصلاحية التي جاءت في سياق ثلاثي سببي كان فيه تغيير الواقع مطلبا أحال على الجهاد وسيلة ثم أحال الجهاد على نصب الإمام هدفا فغاية.

فها هو الشيخ محمد المامي يقوم بتهيئة المجتمع للجهاد وذلك ببث روح الأمل بين صفوف أفرادهم مطمئنا إياهم أن واقعهم ليس سوى حلقة من حلقات التاريخ الطويلة القائمة على المغالبة والتدافع بين بني الإنسان والتقلبات من خير إلى شر ومن شر إلى خير وبالتالي فهو واقع زائل لا يتوفر على شروط البقاء والاستمرار بل يحوي ضمن مكوناته بذور فناءه يقول:

ونعلم أن بعد الخير شرا	وبعد الشر خيرا	ما بقينا
ونعلم أنه سينام جد كما	نامت	جدود
وأن لا شيء إلا الله باق	وأن	الدهر
	يفنى	منجنونا

فسنة الحياة تقتضي حركية مستمرة ودورانا دائما وجدلية بين البقاء والفناء، يوم لك ويوم عليك. إن الشيخ محمد المامي بعد أن حاول إعادة الاعتبار لهذا المجتمع معنويا وأقنعه بضرورة التغيير ضمينا أعلن أن الجهاد أصبح ضرورة بشرية وفريضة شرعية لإنقاذ هذا المجتمع وتنظيم العلاقات بين أفرادهم وإعادة بنائه الداخلي على أسس جديدة تضمن الأمن والاستقرار يقول:

وليس الأكرمون على الليالي	ولا	وقع	القنا	بمحرميننا
وقد حرموا التعزز يعتليهم	من	الأعراب	أسفل	سافلينا
وضاعت نسوة نكحت رجالا	بفعل	الغانيات		مكلفينا
فلم يكتب عليهم من قتال	ولا	قتل	على	ما يزعمونا
وهل حظيت نساء تحت بعل	إذا	كان	الرجال	مخنثينا
عطابيل الأنام جفوتموها	بطبع	في	الخنازر	لن يزينا

إلى أن يقول مخاطبا بعض أصحاب الفتاوي المكرسة للواقع والممانعة

⁴² راجع الشعر السياسي الإصلاحي الموريتاني في القرن 13هـ ، مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين سنة 83-84 للطالب المختار ولد أحمد ص: 37 بتصرف

للجهاد في المنطقة:

ويقرأ كلكم كي ما تكونوا
فويل القارئین وما استقاموا
سواء وويل
للجهاد من كتاب
معطينا الكاتبينا

ثم ضرب لهم أمثلة من تاريخ هذه الأمة المشرق، تاريخها الجهادي من أجل استرداد الكرامة وإحقاق الحق، عله يكون لهم نموذجاً يحتذى وطريقة تتبع وحثاً لهم على الوجود الفعلي. يقول:

أصبرا بعد عباد بن بشر
بنو العباس لا زالوا كراما
وقوم في الجهاد
يقتل جمعهم
إلى أن أدركوا ثارا لقرن
وما أدركتهم ثارا قرونا

ثم تجاوز الشيخ محمد المامي مستوى اللوم والتوبيخ وتعداد الأعداء التي يتسترون وراءها إلى النظر في مستنداتهم الجدلية لضحضاها وتقنيدها يقول:

وقلتم لا جهاد بلا إمام
نبايعه فهل تنصبونا
وقلتم لا إمام بلا جهاد
يعززه فهلا تضربونا
إذا جاء الدليل وفيه دور
كفى ردا لقوم يعقلونا⁴³

فبعد أن فند أعداءهم عن الجهاد شرع في مناقشتهم على مستوى البراهين والأدلة، أي أنه إذا كان عذرهم عن الجهاد هو انعدام الإمام فلم لا تعملون على إيجاده؟ وإذا كان الإمام لا يمكن أن يباشر مهمته مباشرة فعلية إلا بالجهاد فلم لا تجاهدون؟ فحجتكم في ترك الجهاد باطلة إذن، لأن دليلكم فيه دور وتسلسل، وما كان فيه دور تسلسل يعتبر لاغيا حسب ثقافتكم الأشعرية. لذلك صرخ في وجوههم قائلاً:

إلى كم قولكم مستضعفونا
وأنتم للمعاصي فارغونا
حذارا من مفارقة الغواني
والأنعام والسوائم والبنينا⁴⁴

أما نصب الإمام فقد أكد الشيخ محمد المامي على ضرورته ذاكراً أن وجوبه قد عرف بإجماع الصحابة والتابعين⁴⁵. ذاكراً فوائده على المستوى الاجتماعي والسياسي «ومن أخف العادة عند الناس مخالفة للشرع -وهو من أشد ما ترك- نصب الإمام في هذه القطر مع أنه إجماعي الوجوب، وما أكثر ما يترتب على تركه من المحرمات، كالمواثبة و الدخول بغير إذن و ترك الحجاب، والانهماك في جميع الجرائم الموجبة للحدود كالزنا والقذف لأمن المعاقبة عليها. وكذلك ما لم يبلغ حداً؛ وهو سائر المعاصي»⁴⁶.

ثم أعلن أنهم قادرون على نصب الإمام وإقامة السلطة المركزية إذا هم أرادوا ذلك مبينا النتائج المترتبة على وجوده من إحقاق للحق وإرساء للعدالة وتقويم للأخلاق ونشر للفضيلة بل إنه سيوفر فرصة ذهبية للتشاور حول حاضر البلاد ومستقبلها يقول:

⁴³ الشعر السياسي الإصلاحي ص: 53 مرجع سابق

⁴⁴ ديوان الشعر الإسلامي في مورتانيا ص 155-156 مرجع سابق

⁴⁵ الماوردي: الأحكام السلطانية ص: 5

⁴⁶ كتاب البداية: ص:

أما تدرون كل بنى تميم
 ويعجز بعضهم عنها و ليسوا
 كذلك أنتم حيث اجتمعتم
 وينصب حاكم بالعدل يقضي
 وتعرض عنكم حسان لما
 ويضحى أمركم شورى لديكم
 وإن لم يعرضوا عنكم رجعتم
 من الصخر العظيمة يحملونا
 اذا اجتمعوا عليها يعجزونا
 على نصب الخليفة تقدرونا
 فلستم بعدة تتنازعونا
 رضيتم ملة الإسلام دينا
 وتتفقون فيما تصنعونا
 على بعض الفرائض حاصلينا⁴⁷

أما محنض بابيه بن ابيد فقد أكد على ضرورة الجهاد ونصب الإمام ذاكرا أنه السبيل الوحيد لمعالجة الأزمة يقول مخاطبا الشيخ محمد المامي:

حرص على نصب الإمام فإنه
 كيف الجهاد وكيف كف محارب
 أم كيف يقهر من أبى عن حكمه
 بداؤه يشفى من الأسقام
 من محشر فوضى بغير إمام
 إلا بسطوة ناصر الأحكام

إلى أن يقول:

أنتم تاشمش المهتدى بمناركم
 قوموا لهذا الدين وابنوا ما وهى
 فاغدو على نصب الإمام بقرعة
 ما إن لكم في الأمر قط مسام
 بتناول الأيام والأعوام
 وابغوا بذاك نصيحة الإسلام

أما ألفغ بن سيد أحمد فقد بارك دعوة الشيخ محمد المامي ومحنض بابيه بن ابيد داعيا إياهما إلى مواصلة الطريق حتى يطبق شرع الله على أرض الله ذاكرا الفوائد المترتبة على ذلك يقول :

أمر تنوسي غابر الأيام
 أمسى وقد رفع البغاة طموسه
 يدعو له بدر الهداة محمد
 لله دركما اسعيا ولتجهدا
 لاتجعلا ما قلتما قولا بلا
 ولتنبذا ما كان شغلا شاغلا
 لا يستقيم الدين دون مؤمر
 ينهى الغواة إذا بغوا ويردهم
 خلف المحلة ما له من حام
 وأذل أهل الفضل والأحلام
 ومحمد حرصا على الاسم
 في نصر دينكما لنصب إمام
 فعل لكي لا تاتيا بملام
 حتى تعزز ملة الإسلام
 تأبى زواجه على الإجماع
 قسرا بحد الصارم الصمصام

ثم أضاف محددًا الشروط المطلوبة في القائد المشود :

فابغوه محمود الخصال مبراً
 من وهم حظ النفس أخبت ذام

ثم اتبعوه وبائعوه إلى الذي نزل الكتاب به من الأحكام⁴⁸

ج- اتجاه الدعوة إلى التعايش السلمي وإصلاح ذات البين:

أبرز ممثلي هذا الاتجاه الشيخ سيديا (ت1284هـ) والشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي (ت1242هـ).

يتحفظ رواد هذا الاتجاه على الدعوة السابقة إلى الجهاد ونصب الإمام مستدلين بمضاعفات الدعوات السابقة وكأن هزيمة الزوايا في "شربيه" ما زالت ما تلة في أذهانهم فهم على يقين تام بأن أي دعوة جهادية لن تؤدي إلى نتيجة إيجابية تذكر وبالتالي فهي عديمة الجدوى لأن الحصيلة المتوقعة معلومة مسبقاً: حسب تصورهم تفريق المسلمين وإذلالهم مرة ثانية يقول الشيخ سيديا في رسالته الشهيرة إلى قبيلة «إديجب» لما علم أن جماعتهم جادة في تطبيق الأحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. من عبد ربه الغني به سيديا بن المختار بن الهيب طهر الله منه الجيب وستر العيب وأصلح الشهادة والغيب إلى جماعة السادة الأكارم والقادة المعالم أوفى الهمم العلية والأحوال السنية والأعمال الرضية المعتنين بإقامة السنة الأحمدية والباذلين وسعهم في إصلاح الأمة المحمدية أعني جماعة أعبائنا الصلحا وإخواننا النصحاء الذين هم "إديجب" عموماً يعم الكبير والصغير والأمر والمأمور والشريف والمشروف والقوي والضعيف وخصوصاً يخص الخواص من العلماء العاملين والأولياء العارفين والرؤساء المقدمين كل باسمه وصالح وسمه نضر الله أيامهم..»⁴⁹.

إلى أن يقول: «إنه بلغنا ما قصدتم إليه وتعاقدم عليه من التعاون على البر والتقوى والتحاجز عن متابعة حرب النفس والشيطان والهوى والاجتماع على نصب قوم يقومون بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض كفاية.. فنعم القصد قصدكم ونعم العقد عقدكم ونعم الجمع المجتمع على إقامة الدين والدعاية إلى سبيل المهتدين جمعكم ونعم الدفع عن بيضة الإسلام بالحمل على العمل بمقتضى الأحكام دفعكم فأنتم والله الحمد أهل لذلك ومحل لجميع ما هنالك إلا أن مثل هذا الأمر الذي هو القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى إمعان النظر واستعمال مستقيمات الفكر في تحقيق الوجه الذي عليه يطلب ومعرفة القدر الذي منه يجب على من كان في مثل هذا الزمان الفاسد بالفواحش والمفاسد وبمثل هذه البلاد السائبة البعيدة عن بسطة أيدي ولالة العدل الغائبة التي لا ناهي بها ولا منتهي ولا مجيب لداع يدعو إلى الخير»⁵⁰. ثم بين بوضوح وجلاء موقفه من هذه الدعوة قائلاً: «فمن تصدى في هذا الزمان اليوم لإقامة الدين والدعاية إلى سبيل المهتدين ثم رام أن يحمل الناس على فعل المعروف وترك المنكر وأن يغير مناكرهم بيده وإظهار عضده دون إمام تجتمع إليه الكلمة وتقوى به الصولة ويشد به ساعد الحق وتكون به على الباطل الدولة فقد تصدى لإثارة فتنة تستباح فيها الحرم وتراق فيها الدماء وتنتهب فيها الأموال من غير فائدة ولا عائدة»⁵¹.

⁴⁸ المرجع السابق : ص 146-147.

⁴⁹ الشيخ سيديا بن الهيبه: رسالة إديجب (الميزان القويم والصرط المستقيم) ص: 1 مخطوط بمكتبة دار الضيافة للدراسات والنشر في موريتانيا تحت رقم

69

⁵⁰ المصدر السابق ص: 2

⁵¹ المصدر السابق ص: 7

ثم مضى يوضح شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدعماً ما يقول باستشهادات من أقوال علماء البلد والسلف الصالح تؤكد على الطابع السلمي في الخطاب يقول:

«ومن مثل ذلك حذر أهل العلم والبصائر المنورة والفهم قال الشيخ سيد زروق رضي الله عنه في بعض كتبه المحذرة من البدع ما نصه "ومن ذلك التعرض للأمور الجمهورية التي إنما يطلب بها الجمهور كالجهد ورد الظلمات وتغيير المناكر بطريق القهر والاقتدار دون سلطان.. فإن ذلك مفتاح باب الفتنة وإهلاك الضعفاء من المسلمين بغير حق فقد كان ببلادنا رجل من الصالحين يحوم حول ما ذكرناه فجاءه من أخبره عن بعض جهات الروم أنها خالية وأنها مقدور على أخذها فمشى بجماعة من المسلمين بغير حق فخرج عليهم النصاري فلم يجدوا فيئة يرجعون إليها ولا ملجأ يستندون إليه حتى أثنى جماعته بالقتل فهلك منهم جماعة كثيرة.. وقال شيخنا الخليفة سيدي محمد بن شيخنا الكبير سيد المختار رضي الله عنهما في بعض تصانيفه: قد اجتمع علماء السلف والخلف أن المتعرض للأمور الجمهورية كالجهد ورد الظلمات وتغيير المنكر بطريق القهر والاقتدار والمصالوة والمطاوله دون سلطانية ولا ما يقوم مقامها من خطط الشريعة مفتاح باب الفتنة وباب إهلاك الضعفاء من المسلمين بغير حق»⁵².

ويقول الشيخ سيد المختار الكنتي -الذي يعتبر الإطار المرجعي للمسار الدعوي السابق في المنطقة- في رسالة إلى قبيلة "أبناء اعمر بن ملوك" يدعوهم فيها إلى التلاحم ونبد الفرقة ومعاقبة سفهاء القبيلة واحترام المشايخ والعلماء يقول: «الحمد لله الذي جعل القلم نائباً عن القدم ويغني عن مشافهة الكلام والصلاة والسلام على الشفيع في جميع الأمم.

هذا وإنه من عبد مولاه الغني به عما سواه المختار بن أحمد بن أبي بكر إلى جماعة الأبناء والإخوان وخدام الحضرة دون سائر الأقران أعني الجماعة المحروسة بعين الله جماعة أبناء أعمر بن ملوك.

السلام عليكم والرحمة والبركة وبعد فموجه إليكم بعد السؤال عن أحوالكم المرضية وتجديد العهد الوصية ، أنه قد ساءنا ما أنهيتم إلينا من قتل بعضكم بعضاً مع عدم الصبر ، وذلك لا يليق بكم لأن من لم يصبر على زج صديقه لم يصبر على سنان عدوه ، بل الواجب عليكم أن تقولوا لسفهاءكم على وجه الجدّ: لا تنظروا إلا لأنفسكم فإن من مات منكم بين الزمان لا تقوموا في أمره بكلمة لأن عمارتنا أحب إلينا ممن تسبب في قتل نفسه منكم ، لأن الأعداء كثيرون ولا ينتظرون بنا إلا ضعفاء ، فيميلون علينا ميلاً واحدة ، فإن ذلك أكف لهم وأبقى على دولتكم وبهذا كانت قبائل المغافرة تراعي قوتها وتحرص دولتها وتكف سفهاءها وتغيظ أعداءها لأن السفية إذا لم ينفذ أمر قال الشاعر:

بنو تميم ألا تنهوا سفيتهم
إن السفية إذا لم ينفذ أمرها

وخوفوا القاتل أيضاً بالتغريب فإذا مضى زمن التغريب فردوه لئلا تفوتكم منفعة الحي بعد ذهاب الميت، وقولوا له: إن عدت إلى مثل فعلتك لن نرجعك إلينا أبداً فيكون ذلك تأديباً له بعد الذي مسه من وحشة الغربة، وإياكم والمظالمة وحمية الجاهلية .. هذا وأوصيكم بإجلال أهل الله والإحسان إليهم . أعاذنا الله وإياكم من جهد البلاء وأعانكم على الأعداء»⁵³.

⁵² المصدر السابق ص:8

⁵³ الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيدي المختار الكنتي: الطرائف والتلائد في كرامات الوالدة والوالد، الباب الرابع ص357، مخطوط، قسم المخطوطات

خاتمة: خلاصات واستنتاجات

وصفوة القول إن الحركة الإصلاحية في موريتانيا مرت بمنعطفات كثيرة يمكن حصر أهمها في النقاط التالية:

أن هذه الحركة نشأت وتطورت مع ظهور حركة المرابطين لأن الإسلام وإن كان قد دخل هذه الديار مع الفاتحين الأوائل في القرن الأول لكنه لم يتبلور ولم يتعمق إلا في القرن الخامس الهجري مع دولة المرابطين التي صاغت المجتمع صياغة جديدة وفق رؤيتها الصارمة القائمة على المذهب المالكي السني.

تعتبر حركة الإمام ناصر الدين أول حركة إصلاحية في البلد -حسب علمنا- تحاول بطريقة عملية تطبيق الإسلام على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي، لأننا لا نملك معلومات كافية عن مرحلة الفراغ أي المرحلة الزمنية الفاصلة بين سقوط دولة المرابطين وقيام حركة ناصر الدين.

بعد إجهاض حركة الإمام ناصر الدين في القرن 11هـ لم تختف الدعوة إلى الإصلاح من المنطقة نظرا لكونها أحييت في المجتمع روح الدعوة إلى الجهاد وبثت فيه شعورا بضرورة المغالبة والمدافعة لتحقيق التمكين في الأرض، حيث ظهرت حركات إصلاحية وجهادية على ضفتي نهر السينغال تتفاوت قوة وضعفا في حينها إلى قيام دولة إسلامية بوجه عام ونموذج الإمام ناصر الدين بوجه خاص، فعلى الضفة الجنوبية للنهر ظهر نشاط إصلاحي مكثف في القرن 18م عرف باسم الحركات الأمامية (الإمامية) تأسيسا واقتداء بالإمام ناصر الدين وقد استمرت الدولة التي أقامتها بعض هذه الحركات (فوتاتورو) مثلا أكثر من قرن من الزمن وتعاقب على حكمها أكثر من (44 إماما)، وقد كان بعض العلماء الموريتانيين على علاقة وطيدة بها حيث رأوا فيها تجسيدا لطموحاتهم في إقامة دولة الإسلام على هذه الأرض.

أما على مستوى شمال النهر فقد كان وقع الهزيمة شديدا حيث ظهرت دعوة إصلاحية محتشمة في جيل الهزيمة الأول ، أما في الجيل الثاني فقد تطورت الدعوة إلى أن اتسمت بالاحتجاج والرفض حيث نادى روادها بالدعوة إلى الجهاد ونصب الإمام تارة والدعوة إلى التعايش وإصلاح ذات البين بين المسلمين تارة أخرى.

4- أما حظ هذه الدعوة من النجاح ، فإنه على المستوى العملي لم تقم هناك دولة مركزية إسلامية كما لم يقم جهاد بالشكل الذي دعا إليه رواد هذه الحركة لأسباب لا يسع المقام ذكرها، ولكن ذلك لايعني في نظرنا فشلا لهذه الحركة، فالدعوات الحضارية لا يقاس نجاحها عادة بالمكاسب الظرفية وإنما بمدى بقاء ما تحمله من أفكار حيا فاعلا في الأجيال اللاحقة.

ومن هذا المنطلق فإن هذه الحركة الإصلاحية قد حصلت -في نظرنا- على قدر كبير من النجاح حيث ظلت ظاهرة الشعور بخطر النصارى على الدين والدعوة إلى جهادهم ظاهرة بارزة في تصور وممارسة معظم علماء هذا القطر إلى أن تجسد ذلك في ظهور حركة جهادية قوية مع اجتياح الفرنسيين لهذه البلاد في مطلع القرن 14هـ⁵⁴ وهو ما غذى ودعم مسار الرفض للاستعمار حيث ظهرت عشرات الفتاوي التي تحرم التعامل مع النصارى كما ظهرت نصوص

بدار الثقافة بانواكشوط ،

⁵⁴ الشعر السياسي الإصلاحي في موريتانيا ص 72 بتصريف مرجع سابق.

شعرية عديدة تستنهض الهمم وتدعو لحماية المجتمع وطنا فحضارة.
فهل ستجد هذه الحقبة الزمنية من تاريخ حركة الإصلاح في البلد من يوليها العناية اللازمة
درسا وتحليلا؟ أرجو أن يتيسر لي أو لغيري من الباحثين القيام بهذه المهمة.

والله ولي التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن خلدون : تاريخ العبر وديوان المبتدأ ولخبر.
2. مجلة المستقبل العربي: عدد(72) فبراير 1985 بيروت لبنان.
3. محمد بن محفوظ: تحقيق شيم الزوايا لمحمد اليدالي، مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة السنة الدراسية 82-83.
4. سيدي محمود: أزمة القيم في ديوان بكن ، مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين 83-84
5. أحمد بن أحبيب: كتاب الأعداد الجزء (2) مخطوط - قسم المخطوطات بدار الثقافة انواكشوط.
6. سيد أحمد بن اسمه: ذات ألواح ودر ، مخطوط - قسم المخطوطات بدار الثقافة انواكشوط.
7. محمد المختار بن السعد: نظرة تاريخية على شريبه، مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين 81-82
8. René Basset: Recherche Historique sur la Mauritanie P450.
9. Louisse Morodo Chambonneau: Deux textes sur le Sénégal 1673-1677, bultin de l'ifan .
10. محمد بن محمد المختار: مقومات الاستقرار وجذور الأزمة في إمارة الترارة 1677 مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين سنة 82-83.
11. أحمد بن محمد حبيب الله: حركات الجهاد والإصلاح في افريقيا الغربية من نهاية القرن (17) إلى بداية القرن 19 مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين سنة 86-87.
12. كلى آمدو ممدو: مقومات الإستقرار واستمرارية الإضطرابات في تطور النظام الإمامي في فوتاتورو، مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين سنة 83-84.
13. الشيخ موسى كمرا: زهور البساتين في تاريخ بلاد السودان الغربي ج 1، قسم المخطوطات العربية في المعهد الإفريقي التأسيسي بجامعة داكرا- السينغال.
14. الشيخ محمد المامي: كتاب البادية مخطوط ، قسم المخطوطات بدار الضياء للدراسات والنشر تحت رقم: 31 - انواكشوط.
15. الشيخ محمد المامي: مقدمة في علم التربيع مخطوط، قسم المخطوطات بدار الضياء للدراسات والنشر تحت رقم: 19 - انواكشوط.
16. أحمد بن الحسن: الحاج عمر الفتوي وبلاد شنقيط - مجلة الضياء عدد(7) نوفمبر 1997 انواكشوط- موريتانيا.
17. عبد الله بن أحمد بن حمدي: ديوان الشعر الإسلامي في موريتانيا جمع وتحقيق ودراسة - من فاتحة القرن 12- 1418هـ، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة - السنة الدراسية 1997-1998 - كلية الآداب والعلوم الإنسانية I - جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء - المغرب.
18. عبد الله بن أحمد بن حمدي: التعدد القومي في موريتانيا وأثره على تماسك المجتمع

(مقاربة سوسيو تاريخية) مساهمة في الأيام الفكرية التي نظمتها الجمعية الثقافية الإسلامية بتاريخ 1-5/ يناير/ 1990 تحت عنوان موريتانيا بين الأمس واليوم.

19. Boubaccar Barry: La Senegambie Xve au XIXe secle.

20. أحمد بن محم العلوي: روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر أهل الطريقة، مخطوط ، نسخة لمرباط بن محم.

21. أحمد بن بدي: الدرع والمغفر في الرد عن الحاج عمر تحقيق محم الأمين بن محم ، مذكرة تخرج من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، سنة 86-87- انواكشوط.

22. الأمير بن أكاه: ديوان محم اليدالي جمع وتحقيق، مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة سنة 82-83.

23. الشيخ سيدي محم بن الشيخ سيدي المختار الكنتي: الرسالة القلاوية، مخطوط بدار الضياء للدراسات والنشر تحت رقم: 61 - انواكشوط.

24. با شيخ عمر: نشأة النظام الإمامي في فوتاتورو 1760-1790، مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين سنة 82-83.

25. محم عبد الله بن البخاري بن الفلالي: الحياة العمرانية، مخطوط ، قسم المخطوطات بدار الثقافة-انواكشوط.

26. المختار بن أحمد : الشعر السياسي الإصلاحى الموريتاني في القرن 13هـ مذكرة تخرج من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين سنة 83-84.

27. الماوردي: الأحكام السلطانية.

28. الشيخ سيديا بن الهيبه: رسالة إديجب (الميزان القويم والصراط المستقيم) مخطوط بدار الضياء للدراسات والنشر تحت رقم 69- انواكشوط.

29. الشيخ سيدي محم بن الشيخ سيدي المختار الكنتي: الطرائف والتلائد في كرامات الوالدة والوالد- مخطوط ، قسم المخطوطات بدار الثقافة - انواكشوط

مخطط الورقة

تمهيد

I-نشأة الحركة وتطورها

أ-حركة المرابطين

* الفترة الذهبية للحركة

* فترة الضعف والانحلال

* مضاعفات سقوط دولة المرابطين على البلد

ب-حركة الإمام ناصر الدين في القرن 11هـ

.المنطلقات والأهداف

.الفترة الذهبية للحركة

• إجهاض الحركة : أسبابه ومضاعفاته

II-تأثير الحركة على منطقة غرب افريقيا

•حركة فوتا ادجالو

•حركة فوتا تورو

•حركة الحاج عمر الفوتي الجهادية

III-تأثير الحركة على موريتانيا في القرون اللاحقة:

أ-جيل الهزيمة الأول والدور الإصلاحى المحتشم في القرن 12هـ

•محمد اليدالي نموذجاً

ب-جيل الهزيمة الثانى والدور الإصلاحى الاحتجاجى في القرن 13هـ

• تطور الوعي السياسى في هذا الجيل

• أبرز الاتجاهات الإصلاحية في هذا الجيل:

- اتجاه الدعوة إلى الجهاد

- اتجاه الدعوة إلى الجهاد ونصب الإمام

- اتجاه الدعوة إلى التعايش السلمى وإصلاح ذات البين.

IV- خاتمة: خلاصات واستنتاجات

المصادر والمراجع